الفصل السادس

الوضوح

الوضوح هو إحدى الخصائص العامة للإسلام، سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد، أم بالمصادر والمنابع، أم بالأهداف والغايات، أم بالمناهج والوسائل.

وسنحاول بيان ذلك بإيجاز فيما يلي:

أولاً:ـ وضوح الأصول والقواعد الإسلامية:

أول مظاهر الوضوح في الإسلام أن أصوله ودعائمه الكبرى واضحة بينه، لا لزعمائه وقادة الفكر والدعوة إليه فقط، ولا لخاصة المثقفين من أتباعه وأنصاره فحسب، بل لجمهرة المؤمنين به أياً كانوا، يستوي في ذلك الأصول الاعتقادية، والشعائر التعبدية، وأمهات الفضائل الخلقية، والأحكام التشريعية.

وضوح الأصول الاعتقادية:

وأول ما يبدو هذا الوضوح في الأصول الاعتقادية في الإسلام من الإيمان بالله ورسالاته، وبالدار الآخرة.

(أ) عقيدة التوحيد:

فتوحيد الله تعالى ـ وهو أصل الأصول ـ، لا يجعله مسلم، أياً كان جنسه، أو لونه، أو طبقته، أو حظه من التعلم، فقد عرف من كلمة التوحيد وأولى الشهادتين «لا إله إلا الله»، أن لا مكان في الإسلام لتأله بشر أو حجر، أو شيء في الأرض أو في السماء، بل لله من في السماوات ومن في الأرض، وما في السماوات وما في الأرض، ولهذا كانت رسالة محمد ـ ﷺ ـ، إلى ملوك الأرض وزعمائها: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبُد إلا

اللهولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله)[١].

إن قضية التثنية في الألوهية ـ إله الخير والنور وإله الشر والظلمة ـ وقضية التثليث في الوثنيات القديمة، أو في المسيحية المتأثرة بها (الأب والابن والروح القدس)، لا تتمتع واحدة منها بالوضوح لدى المؤمنين بها، ولهذا تعتمد على الإيمان بغير برهان «اعتقد وأنت أعمى». أو «أغمض عينيك ثم اتبعني!».

بخلاف قضية التوحيد فهي تستند إلى العقل، وتعتمد على البرهان، يقول القرآن للمشركين: (أإله مع الله؟ قل هاتوا برهانكُم إن كنتم صادقين)[٢].

ويقيم الأدلة على الوحدانية بمثل قوله: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[٣]، (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذن لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضُهم على بعض، سبحان الله عما يصِفون)[٤].

فالتوحيد في حد ذاته قضية واضحة في ضمير كل مسلم، ودليلها أيضاً واضح في فكره، كما أن أثرها كذلك واضح في حياته. كيف لا وهو يستقبل الحياة بالتوحيد «حيث يسن أن يؤذن أبوه أو وليه في أذنيه» كما يودع الحياة بالتوحيد «حيث يسن أن يلقن المحتضر: لا إله إلا الله».

(ب) عقيدة الجزاء الأخروي:

والإيمان بالجزاء في اليوم الآخر، وأن الدنيا مزرعة الآخرة، وأنها دار ممر ومتاع إلى حين، وأن الآخرة هي دار القرار، ودار الجزاء، فيها توفى كل نفس ما كسبت وتجزى بما عملت: (فمن يعمل مِثقال ذرةٍ خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[٥].

---

(١) آل عمران: ٦٤.
(٢) النمل: ٦٤.
(٣) الأنبياء: ٢٢.
(٤) المؤمنون: ٩١.
(٥) الزلزلة: ٧، ٨.

والإيمان: بأن هناك داراً لمثوبة الأبرار، فيها ـ من النعيم المادي والروحي ـ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قُرة أعين، جزاءً بما كانوا يعملون)[1] وهذه هي الجنة.

وداراً أخرى لعقوبة الفجار، فيها ـ من العذاب الحسي والمعنوي ـ ما لا يقدر عليه إلا الله، وهذه هي النار، التي أعدت للكافرين، وحذر الله منها عباده المؤمنين: (يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفُسَكُم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون)[2].

ومعنى هذا: أن مصير كل إنسان ليس بيد كاهن أو قديس، إنما مصير الناس بأيديهم أنفسهم، حسبما تشهد لهم صحائفهم، وتحكم لهم أو عليهم موازينهم: (فمن ثقُلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خَسِروا أنفُسَهُم في جهنم خالدون)[3].

هذا الإيمان أصل أصيل لا يخفى على مسلم في شرق أو غرب.

(جـ) الإيمان برسالات السماء:

والإيمان برسالات السماء كلها، وما أنزل الله من كتب، وما بعث من رسل، يهدون إلى الحق، ويدعون إلى الخير، ويأخذون بأيدي الناس إلى الله، ويدلونهم على طريق مرضاته، ويضعون لهم قواعد العدل، وضوابط السلوك، لتستبين لهم الغاية، ويتضح لهم السبيل، ولا يكون لأحد عذر في الضلال والانحراف: (رسُلاً مُبشرين ومنذِرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[4]. (لقد أرسلنا رُسُلَنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)[5].

(١) السجدة: ١٧.
(٢) التحريم: ٦.
(٣) المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣.
(٤) النساء: ١٦٥.
(٥) الحديد: ٢٥.

وقد بعث الله في كل أمة رسولاً هادياً، وختمهم بمحمد - ﷺ - الذي بعثه الله ليتمم به مكارم الأخلاق، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وميز رسالته بالعموم والخلود والصلاحية لكل زمان ومكان، وأنزل عليه كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. هذا أصل ثالث لا ريب فيه، ولا خلاف عليه.

هذا الإيمان برسل الله كافة، ركن من أركان العقيدة الإسلامية، لا يجهله مسلم، شأنه شأن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه، وباليوم الآخر.

وقضية النبوة والرسالة في ذهن المسلم وشعوره واضحة متميزة تماماً عن قضية الربوبية والألوهية. فالرسل ليسوا إلا بشراً مثلنا ميزهم الله بالوحي، وليسوا آلهة ولا أبناء آلهة: (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة، كانا يأكلان الطعام!)[1]، «وما محمدٌ إلا رسول قد خلت من قبله الرسُل، افئن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم؟)[2] (قالت لهم رُسُلُهم إن نحنُ إلا بشر مِثلُكم ولكن الله يُمنُّ على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نَأتِيَكم بسلطان إلا بإذن الله»[3].

هذا الوضوح المشرق في العقيدة الإسلامية بالنظر إلى الأنبياء عامة وإلى محمد خاصة، يقابله غموض مطبق في العقائد الأخرى، وأبرزها المسيحية التي لم يتضح لأتباعها حقيقة المسيح: ما هي؟ حتى انهم عقدوا المجامع تلو المجامع للبحث في طبيعة المسيح ما هي؟ أهو إله؟ أم ابن إله؟ أم بشر خالص؟ أم بشر حل فيه الإله؟ أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله: هي الأب، والابن، والروح القدس؟ والروح القدس نفسه اختلفوا فيه ما هو وما علاقته بالأقنومين الآخرين؟ وأم المسيح التي ولدته ما هي أيضاً؟ وما نصيبها من اللاهوت والناسوت أو الإلهية والبشرية؟

---

(١) المائدة: ٧٥.
(٢) آل عمران: ١٤٤.
(٣) إبراهيم: ١١.

كل هذه الأسئلة وغيرها كانت مجالاً للبحث والجدل والاختلاف والتفرق، بحيث نشأ حولها فرق وطوائف يكفر بعضها بعضاً، ويلعن بعضها بعضاً، حتى أصبحت وكأنها أديان متباعدة لا تحل في دين واحد.

وضوح الشعائر التعبدية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام أن أركانه العملية، وشعائره التعبدية واضحة للخاص والعام، ويكاد كل المسلمين - حتى صبيانهم - يحفظون الحديث النبوي المشهور المتفق عليه: (بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً).

فالصلاة، وهي الفريضة اليومية - معروفة بعددها - خمس صلوات في اليوم والليلة - ومواقيتها وأعداد ركعاتها، وأركانها، وشروطها، ومجمل هيئاتها من بدء افتتاحها بالتكبير إلى اختتامها بالتسليم. ثم ما وراء هذه الفرائض من نوافل ومكملات في الليل والنهار، وما شرع لها من أذان متميز، وجماعة يزداد ثوابها كلما كثر أفرادها، لتعمر بها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

والزكاة - وهي العبادة المالية الاجتماعية - معروفة إجمالياً لكافة المسلمين، فهي تؤخذ من أغنيائهم لترد على فقرائهم. فلا تجب إلا على من يملك النصاب بشروطه، وهي طهرة للنفس والمال. وهي تجب في المال بحسب نوعه، وما بين العشر ونصف العشر. وهي تجب في كل حول مرة في غير الزروع والثمار التي تجب زكاتها عند الحصاد.

وصيام رمضان - وهو الفريضة السنوية الدورية - معلوم لكل الأمة الإسلامية، زمنه معلوم، فهو شهر قمري محدود البداية والنهاية، ووقت الصيام كل يوم معلوم، من تبين الفجر إلى غروب الشمس. ونوع الصيام معلوم، فهو إمساك عن الأكل والشرب، ومباشرة النساء (أي: عن شهوتي البطن والفرج).

وآداب الصيام ومكملاته معلومة: من تعجيل الفطور وتأخير السحور، والكف عن اللغو والرفث، والحرص على قيام الليل، والإكثار من الطاعات، والإحسان إلى الناس.

والشعيرة الرابعة حج البيت، وهي فريضة العمر - واضحة معلومة إجمالاً لجماهير المسلمين، لا يجهل أحد فيهم ركنية هذه الفريضة للدين، وأن مكانها مكة المكرمة. وأن الحاج لا بد له من الإحرام والطواف ببيت الله الحرام، والسعي بين الصفا والمروة. والوقوف بعرفات، والمبيت بمزدلفة ومنى، ورمي الجمار والحلق أو التقصير.

فهذه الفرائض الدينية، والشعائر التعبدية، واضحة تمام الوضوح في ذهن المسلم بتركيز وإجمال، فإذا أراد التفصيل. فما عليه إلا أن يحضر بعض الدروس، أو يقرأ شيئاً من الكتب، أو يسأل أهل الذكر! وكل ذلك ميسور غير معسور.

وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم أن العبادة هي المهمة الأولى للإنسان في الحياة: (وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون)(١) وأن روح العبادة هو النية والإخلاص لا مجرد الشكل والرسم: (وما أمروا إلا ليعبُدوا الله مُخلِصين له الدين)(٢).

الأصول الأخلاقية:

ومن الأصول الإسلامية الواضحة: ما يتعلق بالجانب الأخلاقي، فأمهات الفضائل التي أمر الشرع بها، وحث عليها معروفة غير منكورة وأمهات الرذائل التي حذر الشرع منها، ونهى عنها، معلومة غير مجهولة.

لا يجهل مسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين، وبذي القربى واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل.

---

(١) الذاريات: ٥٦.
(٢) البينة: ٥.

ولا يجهل مسلم أن الإسلام يبارك فضائل الصدق، والأمانة، والوفاء، والصبر، والعفاف، والحياء، والسخاء، والشجاعة، والحلم، والإيثار، والتعاون على البر والتقوى.

ولا يجهل مسلم أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولا يحب الفساد، ولا يحب الخائنين، وأن آية المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان. وأن من الكبائر الموبقات: أكل الربا وأكل مال اليتيم.

ولا يجهل مسلم شناعة الجرائم التي فرض الله الحدود عقوبة عليها، مثل قتل النفس عمداً، والسعي في الأرض فساداً بقطع الطريق وترويع الآمنين، والسرقة، والزنى، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وشرب الخمر.

وقبل ذلك كله، لا يجهل مسلم قيمة العنصر الأخلاقي في الحياة، ومنزلته في الإسلام، حتى إن العبادات الإسلامية تهدف إلى ثمرات أخلاقية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تؤخذ من الأغنياء تطهرهم وتزكيهم، والصوم تربية للإرادة وتعليم للصبر: (لَعَلَّهم يتقون)[١] والحج تدريب على التحمل والبذل.

حتى إن الرسول الكريم - ﷺ - ليعلن عن أهمية الأخلاق في رسالته فيقول: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وضوح الآداب:

ويتبع الأخلاق الآداب في وضوحها: أدب الأكل والشرب، أدب النوم والتيقظ، أدب اللباس والزينة، أدب الجلوس، أدب المشي، أدب الزيارة والاستئذان، أدب التحية واللقاء، أدب الحديث، إلى غير ذلك من الآداب.

فأسس هذه الآداب، وأصولها الهامة واضحة معلومة.

فكل مسلم يعلم أنه يسن له عند الأكل أن يأكل بيمينه، ويبدأ باسم الله، ويختم بالحمد لله.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

وأنه ينبغي أن ينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله.

وأنه لا يجوز للرجل لبس الحرير، ولا أن يلبس لبسة المرأة، ولا للمرأة أن تلبس لبسة الرجل. ومن هنا يستطيع المسلمان أن يتعارفا بكل يسر إذا التقيا دون أن يعرف كل منهما بنفسه، ويستطيع غير المسلم أن يعرف المسلمين من غيرهم لأول وهلة، بمجرد إلقاء التحية (السلام عليكم) أو ردها (وعليكم السلام) أو الأكل باليمين، أو «الحمد لله» عند العطاس، أو تشميت العاطس، ونحو ذلك مما يكشف عن شخصية المسلم.

وضوح الشرائع الإسلامية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام وضوح شرائعه وقوانينه، أعني الأساسية القطعية منها، سواء في المجال الفردي أو الأسري أم الاجتماعي

فكل مسلم يعلم بوضوح أنه يحرم عليه أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، كما يحرم عليه شرب الخمر ولعب الميسر.

وكل مسلم يعلم أنه لا يحل له الزواج من أمه، أو بنته، أو إحدى محارمه من النسب، أو الرضاع، او المصاهرة.

ويعلم أنه يحل له الطلاق والمراجعة مرتين، ثم لا تحل له المطلقة من بعد حتى تنكح زوجاً غيره. وأن كل امرأة لا بد أن تعتد إذا فارقت زوجها بطلاق أو وفاة.

وكل مسلم يعلم أن الله قد أحل البيع وحرم الربا، وأنه شرع القصاص من القاتل المتعمد، كما شرع الحدود والعقوبات المقدرة بالنص في مواضع معروفة على جرائم معلومة، هي السرقة والزنى والقذف وقطع الطريق والسكر.

وكل مسلم يعلم أن تحرير أرض الإسلام من الأعداء فريضة، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، وأن من حكم بغير ما أنزل الله يوصف بالكفر والظلم والفسوق.

ثانياً: وضوح مصادره:

ومن مظاهر الوضوح في النظام الإسلامي أن له مصادر محددة بينة، تستقي منها فلسفته النظرية، وتشريعاته العملية.

فالمصدر الأول هو كتاب الله: القرآن الذي: (أُحكِمت آياتُه ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير)[1].

ومن خصائص هذا القرآن أنه «كتاب مبين» حتى إن منزله ـ سبحانه ـ سماه «نوراً»، و«هدى للناس»، و«فرقاناً» و«بُرهاناً» و«بينة». وما ذلك إلا لشدة بيانه ووضوحه. قال تعالى: (يا أيها الناس قد جاءكُم بُرهان من ربِّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً)[2] وخاطب أهل الكتاب بقوله: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدي به الله من اتبع رضوانَه سُبُل السلام ويُخرِجُهُم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[3] وخاطب الرسول المنزل عليه هذا القرآن بقوله: (ونزَّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، وهدى ورحمة وبُشرى للمسلمين)[4].

وإذا كان في هذا الكتاب آيات متشابهات تحتمل أكثر من فهم، بحكم طبيعة اللغة، وتنوع دلالات الألفاظ فيها بين الحقيقة والمجاز بأنواعه، وبمقتضى طبيعة البشر وما جُبِلُوا عليه من تفاوت في الفهم والاستنباط، وبموجب طبيعة الإسلام الذي يحث على الاجتهاد، واستعمال العقول، ولا يضيق بالخلاف إذا لم يؤد إلى عصبية أو تفرق ـ فإن هذه الآيات ليست شيئاً كثيراً إذا قيست إلى الآيات المحكمات «الواضحات الدلالة أو القاطعات» فهن ـ كما ذكر القرآن نفسه ـ (أم الكتاب)، أي: أصله ومعظمه، وإليها ترد المتشابهات فيصدق بعض الكتاب بعضاً، ولا يضرب بعضه ببعض، شأن الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

(١) هود: ١.
(٢) النساء: ١٧٤.
(٣) المائدة: ١٥، ١٦.
(٤) النحل: ٨٩.

ومن نعمة الله، أن ليس في الدنيا كتاب توفرت على فهمه وتفسيره كبار العقول في مختلف الأعصار والأمصار، من شتى الثقافات والمعارف، مثلما يسر الله للقرآن العظيم.

والمصدر الثاني: سنة محمد - ﷺ.

ونعني بها ما ثبت عن النبي - ﷺ - من قول أو فعل أو تقرير. فهذه السنة هي الشرح النظري، والتطبيق العملي، للقرآن الكريم. فأعظم تفسير لكتاب الله يتجلى في سيرة رسول الله - ﷺ - وفي حياته الحافلة، وسنته الشاملة، حتى تستطيع أن تقول عنه: إنه قرآن متحرك يمشي على قدمين! قالت فيه زوجه عائشة: «كان خلقه القرآن».

وحسبنا قوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذْكر لِتُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم ولعلَّهُم يتفكرون)[1].

وقوله سبحانه: (لقد كان لكُم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)[2].

ومما يلحق بهذه السنة المحمدية: سنة الخلفاء الراشدين المهديين بعد محمد - ﷺ - الذين نشؤوا في حجر النبوة - ونهلوا من معين الرسالة، وكانوا في حياتهم امتدادا لرسولهم ومعلمهم - ﷺ - فما أثر عنهم مما اتفقوا عليه جميعهم، أو عن طائفة، ولم ينكره عليه أصحابهم، فهو سنة بها يقتدى فيهتدى، كما جاء في الحديث: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ».

وما عدا ذلك فكل واحد يؤخذ من كلامه ويترك، لا عصمة لمجتهد، وإن علا كعبه في العلم والتقوى. وهو - على أي الحالين: أصاب أو أخطأ - غير محروم من الأجر، إن أصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر. وقد عقب القرآن على حكم داوود وسليمان في غنم القوم بقوله: (ففهمْنَاها سليمان، وكلا

---

(١) النحل: ٤٤.
(٢) الأحزاب: ٢١.

آتينا حُكما وعلماً)[1] فاختص بالفهم أحدهما، ووصف بالحكم والعلم كليهما.

ثالثاً ـ وضوح الأهداف والغايات:

ومن مظاهر الوضوح في نظام الإسلام: وضوح الأهداف والغايات. فغاية الإسلام كله واضحة أمام عيني كل مسلم، يكفي أن يقرأ المسلم هذه الآية من كتاب ربه، فيعرف بإجمال وتركيز تلك الغاية الكريمة، حيث يقول تعالى مخاطباً رسوله في شأن القرآن: (كتاب أنزلناه إليك، لِتُخْرِجَ الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)[2].

غاية الإسلام بإجمال هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفسر الظلمات بما شئت من الجهل أو الشرك، أو الشك أو الظلم، أو الحقد أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكلها ظلمات، تظلم بها النفس، وتظلم بها الحياة معاً

وفسر النور بما شئت من العلم أو التوحيد أو اليقين أو العدل أو الحب، أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكله نور، تضيء به النفس، وتضيء به الحياة أيضاً.

ورحم الله ربعي بن عامر العربي المسلم الذي وعى هذه الغاية وتمثلها في ضميره ثم عبر عنها أمام القائد الفارسي رستم فأوجز وأبلغ، وأحسن كل الإحسان، حين سأله رستم: من أنتم؟ فأجابه بقوله: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ويكفي أن يكون المسلم على شيء من الفقه في دينه، ليعلم أنه يهدف إلى تكوين الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، والأمة الصالحة.

تكوين الفرد الصالح:

والفرد هو اللبنة التي يتكون منها البناء الاجتماعي كله، ولهذا اشتدت

(١) الأنبياء: ٧٩.
(٢) إبراهيم: ١.

عناية الإسلام به في كل مراحل حياته، ولم يبخل عليه بالتشريع ولا التوجيه لأنه هو أساس الأسرة والمجتمع.

فإذا صلح الأفراد صلحت الأسر، وإذا صلحت الأسر صلحت الجماعات والأمم.

وصلاح الإنسان الفرد في نظر الإسلام لا يتم إلا بأمور أربعة اعتبرها القرآن وشروط النجاة من الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة، وهي التي تضمنتها سورة وجيزة من أقصر سور القرآن، يحفظها الصغار والكبار، والمتعلمون والأميون، وهي سورة العصر، التي يقول الله فيها: (والعصر، إنَّ الإنسان لفي خُسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر)[1].

فالشرط الأول لصلاح الفرد ـ وهو الذي يمثل أساس البناء كله ـ هو الإيمان، الذي يصح به تصور الإنسان لنفسه وللكون وللحياة، ولرب الكون والحياة والإنسان، فإن هذا التصور إذا فسد فسدت الحياة كلها من ورائه، فسد العمل، وفسد الخلق، وفسدت العلاقات.

إن صحة هذا التصور هي التي تعرف الإنسان بسر وجوده، وغاية حياته، وما وراء حياته، فيؤمن أنه ليس ذرة تافهة، ولا هباءة ضائعة، وإنما هو مخلوق مكرم يعيش لغاية كبرى هي: خلافة الله في الدنيا، ورضوانه وجنته في الآخرة.

والشرط الثاني: هو عمل الصالحات، فهذا هو ثمرة الإيمان، ومظهره العملي، فالإيمان ليس مجرد إدراك ذهني أو انفعال عاطفي، إنما هو حقيقة مشتركة من المعرفة والانفعال والنزوع، تدفع بالإنسان إلى عمل الخير وترك الشر.

ولم يحدد القرآن (الصالحات) بشيء معين، أو صورة خاصة، بل تركها

---

(١) سورة العصر.

هكذا لتشمل كل ما يصلح به الإنسان بدنياً ونفسياً، فردياً واجتماعياً، وكل ما تصلح به الحياة، مادياً وروحياً، حضارياً وأخلاقياً، من عبادات ومعاملات وآداب وأخلاق.

والشرط الثالث: هو التواصي بالحق، وصيغة «التواصي» تدل على تفاعل من طرفين. ومعنى هذا أن يوصي المؤمن غيره بالحق، ويقبل منه الوصية بالحق، وهذا يعطينا أن القرآن لا يتصور المؤمن إلا في مجتمع يأخذ منه ويعطيه، ولا يتصوره راهباً في صومعة، أو منقطعاً في فلاة.

وبهذا لا يكتفي القرآن من المسلم أن يكون صالحاً في نفسه: سليم العقيدة صحيح العبادة، حسن المعاشرة، ثم يدع الحق مغلوباً، والباطل غالباً، والمعروف ضائعاً، والمنكر ظاهراً قاهراً، وهو لا يحرك ساكناً، ولا ينطق صامتاً، ولا يبذل جهداً، إن المسلم لا بد أن يعيش جندياً للحق، يؤمن به ويحبه، وينصره ويدعو إليه، وهذا أساس فرضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام.

والشرط الرابع: لازم للشرط الثالث، وهو التواصي بالصبر، فإن الذي يحمل رسالة الحق، يحتاج حتماً إلى الصبر، يوصي به نفسه، ويوصي به غيره، ويوصيه به مثله، فمن آمن بمثل ما آمن به صاحب الحق لا بد أن يؤذى، فلا بد أن يوطن نفسه على الصبر، ولهذا قال لقمان لابنه وهو يعظه: (يا بُني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)[1].

وهذه الأمور الأربعة - التي يصلح بها الفرد - واضحة بحمد الله، وضوح «سورة العصر» لدى كل مسلم.

ليس الفرد الصالح في الإسلام إذن هو الذي يعتزل الحياة في صومعة، يعمر الآخرة بخراب الدنيا، ولكنه الذي يعمل للحياتين، ويجمع بين

---

(١) لقمان: ١٧.

الحسنيين: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة)[١].

فمن التفت إلى الآخرة وحدها، ولم يعط للدنيا حقها، وقد استخلفه الله فيها وأمره بعمارتها: (إني جاعِلٌ في الأرض خليفة)[٢]، (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)[٣] فقد جار على دنياه، وظلم نفسه حقها. وقد جاء في الحديث «إن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً» وقال تعالى:
(قل من حرم زِينَةَ الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)[٤].

ومن جعل الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، ومحور تفكيره وشعوره وسلوكه، فقد ظلم آخرته وبخس نفسه، وغفل عن مصيره، بل عن سر وجوده، وحق عليه قوله تعالى:
(فأما مَنْ طغى. وآثر الحياةَ الدنيا. فإن الجحيم هي المأوى)[٥].

ولا ريب أن غايات الناس تختلف اختلافاً كبيراً، وتتفاوت تفاوتاً بيناً، بحسب ما تهبط بهم شهواتهم الدنيا، أو ترتقي بهم خصائصهم العليا.

ولو تُرك الناس لغرائزهم وحدها لنزلت بهم إلى حضيض الأنعام، أو كانوا أضل سبيلاً. ولكن مهمة الدين أن يرقى بهم إلى أفق الملائكة.. وأن يصل بهم صعوداً - على مدارج التقوى - إلى جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ورضوان من الله أكبر، يقول الله تعالى: (زُيِّن للناس حبُّ الشهواتِ من النِّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياة الدنيا. والله عنده حُسنُ المآب. قُل أؤنبئكم بخير من ذلِكُم؟ للذين اتقوا عند ربهم جنَّات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها، وأزواج مطهرة ورضوان من الله: والله بصير بالعباد)[٦].

---

(١) البقرة: ٢٠١.
(٢) البقرة: ٣٠.
(٣) هود: ٦١.
(٤) الأعراف: ٣٢.
(٥) النازعات: ٣٧-٣٩.
(٦) آل عمران: ١٤، ١٥.

تكوين الأسرة الصالحة:

ويهدف الإسلام كذلك إلى تكوين الأسرة الصالحة السعيدة.

والأسرة الصالحة هي التي تظللها المعاني التي جعلها القرآن الكريم أهداف الحياة الزوجية وثمراتها. وهي السكون النفسي والمودة والرحمة.. قال تعالى: (ومن آياته أن خلَق لكُم من أنفُسِكم أزواجاً لتسكُنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)[١].

وقال تعالى في تصوير العلاقة بين الأزواج والزوجات: (هُنَّ لِباس لكم وأنتم لباس لُهنّ)[٢] وكلمة اللباس هذه تحمل من معاني الوقاية، والستر، والزينة، والدفء، والقرب، والالتصاق ما لا يخفى.

والأسرة الصالحة هي التي تقوم على الدعائم الآتية:

١ - أن يتم الزواج على التراضي دون ضغط ولا إكراه،ولا غش من طرف لآخر.

٢ - تبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين بالمعروف: (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)[٣].

٣ - إيجاب المعاشرة بالمعروف دائماً، وخاصة عند الاحساس بعاطفة الكراهية أو النفرة.

قال تعالى: (وعاشِرُوهنَّ بالمعروف، فإن كَرِهتُمُوهُنَّ، فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعَلَ الله فيه خيراً كثيراً)[٤].

٤ - تكليف الزوج القوامة والإشراف والمسئولية عن الأسرة: (وللرجال عليهنَّ درجة)[٥]، (الرجال قوامون على النساء بما فضَّل الله بعضهم على

(١) الروم: ٢١.
(٢) البقرة: ١٨٧.
(٣) البقرة: ٢٢٨.
(٤) النساء: ١٩.
(٥) البقرة: ٢٢٨.

بعض وبما أنفقوا من أموالِهم)[١].

٥ ـ تكليف الزوجة الإشراف والمسئولية عن البيت من الداخل: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.... والرجل في أهل بيته راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها»[٢]

٦ ـ وجوب الرعاية من الأبوين لأولادهم، والعدل بينهم: «رحم الله والداً أعان ولده على بره»، «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم».

٧ ـ وجوب بر الوالدين والإحسان بهما عامة، وبالأم خاصة: (وَوصَّيْنَا الإنسان بوالديه حَمَلَتهُ أمه وهناً على وهنٍ، وفصَالُهُ في عامين، أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير)[٣].

تكوين المجتمع الصالح:

ويهدف الإسلام إلى تكوين المجتمع الصالح، كما هدف إلى الفرد الصالح، والأسرة الصالحة، وهما ولا شك أساس متين لصلاح المجتمع المنشود.

والمجتمع الصالح هو الذي ترتبط أفراده وأسره بقيم الإسلام العليا، ومبادئه المثلى، ويجعلها رسالة حياته، ومحور وجوده.

وأهم القيم الإسلامية في هذا المقام هي:

(أ) التجمع على العقيدة: فالمجتمع الإسلامي ليس مجتمعاً قومياً أو إقليمياً، وإنما هو مجتمع عقائدي، مجتمع فكرة وعقيدة، وعقيدته هي الإسلام فهو الأساس «الأيديولوجي» لهذا المجتمع.

قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة، أو ألوان مختلفة، أو أوطان مختلفة، أو ألسنة مختلفة، أو طبقات مختلفة، ولكن هذا

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) متفق عليه.

(٣) لقمان: ١٤.

الاختلاف كله يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة، أمام «لا إله إلا الله ـ محمد رسول الله». أمام الإيمان المشترك الذي يضم الجميع في رحاب أخوته: (إنّما المؤمنون أخوة)[1].

فإذا أردنا أن نصف هذا المجتمع بصفة فذة تميزه عما سواه، لم نجد إلا أن نقول: إنه «مجتمع مؤمن»، أو هو «مجتمع المؤمنين» أولئك الذين وصفهم الله تعال في مطلع سورة البقرة بقوله: (الذين يُؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفِقون. والذين يُؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلِك، وبالآخرة هم يُوقِنون، أولئك على هُدى من ربهم، وأولئك هم المفلحون)[2].

والإيمان الإسلامي ليس مجرد شعار أو دعوى، أو تعصب على الآخرين، وإنما هو حقيقة تستقر في النفس، ينبثق عنها سلوك، ويصدقها عمل إيجابي.

ومن هنا جاء الاهتمام بقيمة أخرى من القيم التي يقوم عليها المجتمع الصالح الذي يهدف الإسلام إلى تحقيقه وهي:

(ب) «احترام العمل الصالح» بل تقديسه ـ سواء كانت صبغته دينية كالصلاة والصيام والحج والعمرة، والذكر والتلاوة والدعاء. أم دنيوية، كالسعي في طلب الرزق، وعمارة الأرض، ومنفعة الناس، والإحسان إليهم، هو كذلك أصل مقرر معروف، اعتبره القرآن ركناً في كل دين، مقروناً بالإيمان بالله واليوم الآخر. قال تعالى:

(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، فلهم أجرُهم عند ربهم، ولا خوف عليهم، ولا هم يحزنون)[3].

---

(١) الحجرات: ١٠.

(٢) البقرة: ٣-٥.

(٣) البقرة: ٦٢.

وقرن القرآن العمل بالإيمان في أكثر من سبعين آية، في مثل قوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، إنَّا لا نُضيع أجر من أحسن عملاً)[1].

ولا ريب أن إقامة شعائر الله، وأداء فرائضه الكبرى - من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت هي أول ما ينطبق عليه معنى العمل الصالح. فليس هناك عمل أصلح للمخلوق من معرفة خالقه، وعبادة ربه، وإخلاص الدين له، شكراً لنعمته، ووفاء بحق ربوبيته.

(ج) والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، أصل بين من أصول هذا الدين، فليس يكفي - في منطق الإسلام - أن يكون المرء صالحاً في خاصة نفسه، غافِلاً عن فساد غيره، بل الصالح عنده حقاً، من أصلح نفسه، وحاول إصلاح غيره، ولو بالدعوة والأمر والنهي. كما قال تعالى: (ولتكُن مِنكُم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون)[2]. وبهذه الخصيصة ترجحت الأمة المسلمة على سائر الأمم: (كُنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتُؤمنون بالله)[3].

ومن هنا سجل القرآن لعنة الله لبني إسرائيل - على لسان داوود وعيسى ابن مريم - لسكوتهم عن المنكر - وعدم تناهيهم عنه: (لعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون)[4].

(د) والجهاد في سبيل الله - حماية للحق، وتثبيتاً للخير، وتأميناً للدعوة،

---

(١) الكهف: ٣٠.
(٢) آل عمران: ١٠٤.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) المائدة: ٧٨، ٧٩.

ومنعاً للفتنة، وصداً للمغيرين، وتأديباً للناكثين، وإنقاذاً للمستضعفين ـ أصل إسلامي لا ينكره مسلم، ولا يجهل منزلته وفضله، وما أعد الله لأهله، فضلاً عن مشروعيته، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا مالكُم إذا قيل لكم انفِروا في سبيل الله اثاقلتُم إلى الأرض؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تَنفِرُوا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضرُّوه شيئاً، والله على كل شيء قدير)[1]. وقال: «يا أيها الذين آمنوا خُذوا حِذرَكُم فانفِرُوا ثُبَات أو انفِرُوا جميعاً)[2]، (وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رِبَاط الخيل تُرهِبُون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرون من دونِهِم لا تَعْلَمُونهم، الله يعلمهم، وما تُنفِقوا من شيء في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون)[3].

(هـ) وتثبيت الفضائل الخلقية كلها في شتى جوانب الحياة، ونشرها وحمايتها، من العدل، والإحسان، والبر، والصلة، والتعاون على البر والتقوى، واحترام النظام، والصدق والعفاف، ورعاية الأمانة والوفاء بالعهد، والإخلاص في السر والعلانية، وقول الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وكف اليدين واللسان عن إيذاء الناس، وطهارة القلب من الغل والحسد، والرياء، والنفاق، وحب الدنيا، وسائر أمراض النفوس ـ كلها من الركائز المعنوية التي لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها.

رابعاً ـ وضوح المناهج والطرق:

ويتميز الإسلام كذلك بوضوح منهجه، وطرقه التي وضعها للوصول إلى غايته المثلى، وأهدافه العليا:

---

(١) التوبة: ٣٨، ٣٩.

(٢) النساء: ٧١.

(٣) الأنفال: ٦٠.

(أ) من عبادات وشعائر تغذي الروح، وتزكي النفس، وتربي الإرادة، وتوحد الاتجاه، وتدرب الإنسان على كمال العبودية لربه الأعلى، الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى.

وهي عبادات محددة لا تقبل الابتداع، ميسرة لا تقبل التزمت، معتدلة لا تقبل التطرف، عميقة تهتم بالجوهر قبل المظهر.

وعلى رأس هذه العبادات الشعائر الكبرى من الصلاة، والزكاة، والصيام والحج. وقد نوع الإسلام فيها، فبعضها بدني كالصلاة والصيام، وبعضها مالي كالزكاة، وبعضها يجمع بينهما كالحج والعمرة.

ومن هذه العبادات ما يتكرر كل يوم كالصلاة، ومنها ما يتكرر كل سنة كالصيام والزكاة، ومنها ما لا يَفرض في العمر إلا مرة واحدة كالحج.

ومن هذه العبادات ما هو فعل إيجابي كالصلاة والزكاة والحج، ومنها ما هو مجرد ترك وكف وامتناع، مثل الصيام الذي هو كف عن الاستجابة لشهوتي البطن والفرج، امتثالاً لأمر الله تعالى.

وكلها لا بد فيها من النية الخالصة، لأنها روح العمل وسره: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حُنفاء)[1]، «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[2].

ومن هذه العبادات فرائض لازمة لكل مسلم ومسلمة، لا يقبل التفريط فيها بحال إلا من عذر يقدره الشرع.

ومنها نوافل هي بمنزلة الربح لرأس المال، من استزاد منها كان خيراً له، ومن تكاسل عنها فلا إثم عليه. وهي ميدان المتنافسين في الخيرات، والمتسابقين في الباقيات الصالحات.

إن هذه العبادات غايات في نفسها، ولكنها ـ مع ذلك ـ وسائل

---

(١) البينة: ٥٠.

(٢) متفق عليه.

فذة للتربية الروحية، والأخلاقية، والاجتماعية، ومناهج ربانية لتدريب المسلم على السلوك الأمثل والحياة المثلى.

(ب) ومن أخلاق وفضائل تقاوم الأنانية، وتربي روح الغيرية، وتعنى بزكاة الفرد، وتماسك المجتمع، تزكي نوازع الخير، وتقلم أظافر الشر. وهي أخلاق فطرية، واقعية، مفهومة معللة، شاملة، متوازنة، يجتمع العقل والنقل على تحسين ما حسنته، وتقبيح ما قبحته.

(جـ) ومن آداب وتقاليد، تربي الأذواق، وتحمي الأخلاق، وتجمل الحياة، وتصنع وحدة المظهر مع الخير، وتصون المجتمع من عبث المتحللين، وتزمت المتزمتين.

وهي آداب تصحب المسلم في حياته كلها: في مأكله ومشربه، وملبسه ومركبه، ويقظته ونومه، وسفره وحضره، وخلوته وجلوته.

وهي آداب تحرص على ربط المسلم بالله تعالى في كل أحواله، وكل أحيانه، فهو ينام على ذكر الله، ويستيقظ على ذكر الله. ويبدأ الأكل باسم الله، ويختمه بحمد الله، وكذلك لبسه الثوب، وركوبه الدابة، وسفره وعودته. وهو إذا هنأ أو عزى، أو شمت عاطساً أو رد على مشمت، أو سافر أو ودع مسافراً، أو غير ذلك. لم ينس الله تعالى، بل رطب لسانه بذكره، حامداً أو داعياً أو مسمياً أو مثنياً عليه تعالى بما هو أهله.

ولهذا نستطيع أن نميز المسلمين من غيرهم لأول وهلة، حين نراهم يلتقون فيُحيي بعضهم بعضاً بالقاء السلام، ويجتمعون على المائدة، فيأكلون باليمين ويبدؤوا باسم الله، ويختمون بالحمد لله، وهكذا..

(د) ومن نظم وتشريعات للفرد وللأسرة وللجماعة.

فهي ترسم للفرد طريقه، وتحدد له سلوكه، وتبين له الحلال من الحرام.

وهي للأسرة دعائم وركائز، تمنعها أن تميد، وتحفظها أن تنهار: توضح ما

لكل طرف من الحقوق، وما عليه من الواجبات، وتحرص على بقاء هذه المؤسسة الجليلة واستمرارها في أداء رسالتها، ما لم يصبح إثم بقائها أكبر من نفعه، فالخير في الافتراق بعد محاولة الإصلاح، وآخر العلاج الكي.

وهي للجماعة ضوابط وموازين، مهمتها أن تقيم العدل، وتردع عن الشر، وتحمي الإخاء، وتمنع التنازع، وتصون الحقوق، وتحفظ على الناس أديانهم ودماءهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم ونسلهم، وهي الضروريات التي لا تقوم الحياة إلا بها، كما تحفظ عليهم حاجيات الحياة وكمالياتها أيضاً، كل بحسب منزلته.

ومن حسن حظ المسلمين أن قامت على خدمة هذه المناهج وتجليتها، وبيان أحكامها وحكمتها، علوم ومعارف شتى في محيط الثقافة الإسلامية الرحب، من تفسير وحديث وفقه وأصول وأخلاق وآداب وتصوف..

ومهما يكن من اختلاف «أهل الذكر» في فروعها وجزئياتها، فإن أصولها الكلية، وقواعدها الأساسية، بينة كالصبح، واضحة كالشمس، لا يختلف فيها اثنان، ولا ينتطح فيها عنزان، كما يقال.

اعتراض مردود:

سيقول بعض الناس: إن كان الإسلام بهذا الوضوح، فما بال هذه الفرق التي ظهرت باسمه عبر التاريخ؟ وما بال هذا الانقسام القائم بين سنة وشيعة؟ وما سر هذا الاختلاف بين السلفية والصوفية؟ وبين المذهبيين واللامذهبيين؟

ولا أجهل أن هناك أناساً من المبشرين والمستشرقين ومن يدور في فلكهم يجهدون جهدهم، لتضخيم هذا المعنى وتكبيره، بحيث يخيل إليك من كتاباتهم أن هذا الدين ليس واحداً، كما أنزله الله، بل ثمت مئة إسلام وإسلام، فلكل بلد إسلام، ولكل عصر إسلام، ولكل مذهب إسلام، وهكذا.

والذي أستطيع أن أؤكده بكل قوة: أنه لا يوجد في العالم كله (أيديولوجية) دينية ولا وضعية تملك من الوضوح والوحدة ما يملكه هذا الإسلام.

إن الإسلام الذي ندعو إليه ونصفه بالوضوح، ليس إسلام فرقة من الفرق، ولا بلد من البلدان، ولا مذهب من المذاهب، إنه إسلام القرآن والسنة، إسلام الصحابة ومن تبعهم بإحسان، الإسلام الأول قبل أن تظهر الفرق والنحل والبدع والأهواء المحدثة التي فرقت الناس شيعاً.

ولقد سمعت من أحد كبار الشيعة العقلاء الحريصين على وحدة الأمة، كلمة جديرة بأن تسجل وتنشر. قال: هل كان هناك سنة وشيعة عندما أكمل الله الدين لهذه الأمة، وأتم عليها النعمة، ونزل قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً)(١).

وكان جواب الحاضرين طبعاً: لا.

إذن جاء الخلاف بعد ذلك في تفسير قضايا تاريخية!

وكان الجواب: نعم بكل تأكيد.

وهناك قال الرجل العاقل: فلنغض الطرف عما حدث بعد قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم..) وليسعنا كتاب الله، ففيه كل الكفاية.

وهذا كلام صحيح، فإن منبع الخلاف بين السنة والشيعة هو موضوع الخلافة، ومن أحق بها بعد رسول الله - ﷺ - فهو خلاف على أمور انتهت تاريخياً، وأفضى المختلفون فيها إلى ربهم، ومردهم إلى الله.

أما الشيء الباقي وراء هذا كله، فهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن نعم الله على الأمة الإسلامية أن الله تعالى قد خصهم بما لم يخص به أمة من قبلهم، وذلك أنه تعالى تولى بنفسه حفظ كتابهم المجيد الذي هو دستور حياتهم، والمصدر الأول لتشريعهم وتوجيههم، وهو القرآن الكريم، قال تعالى: (إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحَافِظُون)(٢).

وقد أثبتت القرون المتتابعة صدق هذا الوعد الإلهي - وبقي هذا القرآن كما

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) الحجر: ٩.

أنزله الله، وتلقاه محمد - ﷺ - وحفظه أصحابه، وبلغوه لمن بعدهم، محفوظاً في الصدور، متلوا بالألسنة، مكتوباً في المصاحف، لم تضع منه كلمة، ولم تتغير فيه جملة.. على حين حرفت وبدلت - أو ضاعت بالكلية - كل الكتب السماوية التي نزلت من قبل، ولم يضمن الله لها الحفظ، لأنها كانت كتباً مرحلية لدعوة خاصة، ليس لها صفة العالمية لكل الناس، ولا صفة الخلود إلى أن تقوم الساعة، كما هو شأن دعوة الإسلام.

كما أن سنة محمد - ﷺ - قد حفظت منتقاة مغربلة، لتكون التبيان النظري والعملي لهذا القرآن.

وإذا كان تاريخ الإسلام قد حفظ أسماء فرق كثيرة قد ظهرت في مجتمعه، فإنه قد سجل كذلك انقراض معظمها من المجتمع الإسلامي. فقد لفظها جمهور المسلمين، ولم يبق لها مكان بينهم، ولم يمض زمان على من بقي منهم حتى ذابوا في مجموع الأمة. ولئن بقيت بعض الفئات المتطرفة، إن الإسلام لا يتحمل وزرها. ولا تحسب انحرافاتها وشذوذها عليه، وعلى أمته الكبرى.

ولقد حدد الإسلام المرجع الذي يحتكم إليه المسلمون إذا اختلفوا، وذلك في قوله تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)[1].

وقد أجمع المسلمون منذ الصدر الأول على أن الرد إلى الله في الآية يعني الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله يعني الرد إلى سنته.

وقد وضع المسلمون علماً خاصاً في تفسير النصوص والاستنباط منها، هو علم (أصول الفقه)، ليعينهم على وحدة الفهم. ولا أنكر أن كثيراً من مسائل الأصول نفسها مختلف فيها، ولكن الأمور الأساسية متفق عليها، وما عداها فإن الإسلام نفسه لم يحرج على أبنائه الاختلاف في شأنها.

---

(١) النساء: ٥٩.

على أن هنا علاجاً عملياً آخر، للتقليل من خطر الاختلاف، وهو ما قرره علماء المسلمين من أن رأي الإمام يرفع الخلاف في المسائل الخلافية.

فمتى وجد للمسلمين إمام شرعي تمت إمامته بالاختيار والشورى والبيعة، كان رأيه في مسائل الخلاف العملية هو القول الفصل. أما المسائل النظرية فلكل رأيه وحسابه على الله.

الأيديولوجيات الحديثة وغموضها:

ومن العجيب أن الذين يحاولون التنقص من هذه الخصيصة من خصائص الإسلام، بالتهويل والتضخيم في أمر الاختلاف الذي حدث في تاريخ المسلمين، والصاق كل فئة شاذة مارقة بصميم الأمة المسلمة، هؤلاء يتعامون عن الغموض البين، والاختلاف البارز، الذي يراه ويلمسه كل دارس للأيديولوجيات الوضعية المعاصرة التي أصبحت (أصنام) هذا العصر، وغدا هؤلاء وأمثالهم من الكتاب «الكهنة» الجدد لهذه الأوثان.

إن هذه الأيديولوجيات الحديثة البراقة، تفتقر إلى مجرد تعريف دقيق ـ أو كما يقول المناطقة: جامع مانع ـ يحدد مدلولها، ويوضح طبيعتها ومفاهيمها الأساسية فإن هذا التعريف المجرد مفقود. ولهذا يختلفون حولها في كل شيء، حتى في معناها: ما هو؟

خذ مثلاً: الديمقراطية.

فنحن لا نكاد نجد في القرن العشرين أيديولوجية اجتماعية، ولا تنظيمية سياسية، من الليبرالية، إلى الاشتراكية، إلى الشيوعية، أو حتى الفاشيستية أو النازية، إلا وتدعي كل منها أنها هي (الديمقراطية) الحقة، وأن ما عداها ديمقراطية زائفة، وبات الناس حائرين، أي هذه الديمقراطيات هو الأصيل، وأيها المدعى؟

ولا يخرج من هذا الغموض، وهذه البلبلة الاحتكام إلى معايير خلقية أو روحية، لأن الجميع يدعون الحرص على الحرية والمساواة وكرامة الإنسان.

ولا الاحتكام إلى (معايير اجتماعية وضعية)، لأن كل فئة ستقدم لنفسها معياراً تبرر به منهجها وأسلوبها. فمفكرو الديمقراطية الغربية يعتمدون المعيار السياسي، ويميزون ديمقراطيتهم بالحرية السياسية. على حين يعتمد الماركسيون المعيار الاقتصادي، فيميزون ديمقراطيتهم بالحرية الاجتماعية والاقتصادية.

ويتحدى الصينيون المعيارين معاً خلال ما يسمونه (الديمقراطية الجديدة).

ويتحداها أيضاً الثوريون الآسيويون والأفريقيون من خلال ما يدعونه (الديمقراطية الاشتراكية)[١].

بل وجدنا من يجمع بين الضدين، خلال ما يسمونه (الدكتاتورية الديمقراطية)[٢].

وخذ مثلاً آخر: الاشتراكية، التي فتن بها الكثيرون من قومنا، وباتوا يدعون إليها باللسان والقلم. ما هي الاشتراكية؟ وما مدلولها؟ وما أهدافها؟ ما أصولها؟ وما مصادرها؟.

إنك تبحث عن جواب لهذه الأسئلة فلا تجد إلا الغموض، والاختلاف البين حولها، بين مؤسسيها ودعاتها.

يقول الأستاذ ثاوني: إن الاشتراكية كغيرها من التعبيرات المختلفة للقوى السياسية المركبة، كلمة لا تختلف في مدلولها من جيل إلى جيل فحسب، بل من حقبة إلى حقبة.[٣]

ويؤكد الأستاذ «كول» التناقض في فهم العقيدة الاشتراكية بين بلد وآخر، وبين جيل وما بعده، ويزيد عليه فيقول: (ولم يكن التباين في العقيدة نتيجة اختلاف الزمن فحسب، بل كان هناك تناقض بين الصور المختلفة التي وجدت في عصر واحد)[٤].

ونقرأ في كتاب: (هذه هي الاشتراكية) للكاتبين الفرنسيين: جورج

---

(١) «الإسلام وتحديات العصر» ص ١٢٩، ١٣٠ ط. ثانية.
(٢) «القومية والمذاهب السياسية» ص ٣١٧.
(٣، ٤) الاشتراكية والقومية» للدكتور يوسف عز الدين ص ٧٤.

بورجان، وبيار رامبير، هذه العبارات نقلاً عن مكسيم لوروا في كتابه (رادة الاشتراكية الفرنسية) يقول: (لا شك في أن هناك اشتراكيات متعددة، فاشتراكية بابون، تختلف أكبر الاختلاف عن اشتراكية برودون، واشتراكيتا سان سيمون وبرودون تتميزان عن اشتراكية بلانكي، وهذه كلها لا تتمشى مع أفكار لويس بلان، وكابيه، وفوربيه، وبيكور. وإنك لا تجد داخل كل فرقة أو شعبة إلا خصومات عنيفة، تحفل بالأسى والمرارة!)[1].

وبرغم قرب العهد بماركس (المتوفى ١٨٨٢م)، وخلفائه: انجلز (١٨٨٦). ولينين (١٩٢٤). مؤسس الدولة الاشتراكية الماركسية الأولى، نرى الهوة تتسع بين تجربتين رئيسيتين في روسيا والصين، ينتسب كل منهما إلى ماركس ذاته.

وليس أفضل من أن نستشهد هنا بقول لأحد الماركسيين المعروفين، وهو مكسيم رودنسون، الكاتب اليهودي الفرنسي اليساري الذي يقول:

(الحقيقة أن هناك (ماركسيات) كثيرة بالعشرات والمئات: ولقد قال ماركس أشياء كثيرة، ومن اليسير أن نجد في تراثه ما نبرر به أية فكرة!! إن هذا التراث كالكتاب المقدس (أسفار التوراة، والأناجيل وملحقاتها) حتى الشيطان يستطيع أن يجد فيه نصوصاً تؤيد ضلالته!!)[2].

هذه هي الأيديولوجيات البشرية. في غموضها. واختلافها وذلك هو الإسلام في وضوحه.... ووحدته.

وشتان بين ما شرعه الله.. وما وضعه الناس..

(وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظلمات ولا النور)[3].

---

(١) «هذه هي الاشتراكية»: ترجمة محمد عيتاني ـ بيروت ص ١٣.

(٢) «الإسلام والرأسمالية» ص ٢٤.

(٣) فاطر: ١٩، ٢٠.